من تراثنا الأدبي

٣ ـ أبو العينـــاء

بقلم محمود محمود خليل

لقد مات المأمون ؛ ولقد حزن أبو العيناء حقاً عليه ، حتى بكى بكاء مراً ، وتقرحت عيناه ؛ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنه راعى حق النعمة ، وقام بإسداء الشكر لصاحبها ، حتى بكاه بعد وفاته ؛ وسواء أكانت خلة الوفاء موجودة فيه وهو ما لا أظنه ، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصية فاتته ، وخاف من انقطاع الرزق الذى أجراه عليه المأمون من بيت المال ، فان همّ ضمان قوته كان يخالج فؤاده ، ويخشى من يأتى بعده

ولقد تحققت مخاوفه ، فان عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبى العيناء كثيراً ، ويرجع هذا إلى الخصومة التى كانت قائمة بين الوزير فى ذلك العهد محمد بن عبد الملك الزيات ، وبين القاضى أحمد بن أبى دُوَاد ، تلك الخصومة التى اشتدت إلى درجة كبيرة ، حتى جعلت ابن أبى دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول ابن الزيات ، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين فى المجلس ، ولم يرخص فى ذلك لأحد ،

فالشعور الذى يتجه إلى الألم فيستعذبه ، وإلى الدمع فيسكبه ، هو الشعور الذى تطربه المسرات ، ويشمله النعيم ، إلا أن انفعالات الشعور الأول من نوع فاتر حزين ، وانفعالات الشعور الثانى من نوع متفتح مرح ، وكلا الشعورين له قيمته وخطره ؛ فالشعور بالألم يكون معظم عناصر الحياة ، كما أن الشعور بالنعيم يمس طبيعتها الأولى وحقيقتها الواقعة ، وهما شعوران تخلقهما فى النفوس طبيعة الحياة التى تحياها . فليس فى عبد المطلب قديم ، إذ ليس هناك قديم أو جديد فى الأدب ، فهو فن والفن لا يتغير فى قيمته الجوهرية ، وإن تغير فى عوارضه والمظاهر التى تسدلها عليه نوازع الابتكار . وبعد ، فتلك كلمة لذكرى شاعر البادية عبرة للشعراء ، وتذكرة للأدباء الذين هم أحق بهذه الذكرى ، وتلك الخاطرة . . . . . ؟

طاهر الحمروسى

فاشتد الأمر على القاضى ، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً ، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلصه من ذلك الموقف الحرج ، فوكل بعض غلمانه بمراقبته ، وموافاته بخبر قدومه ، فاذا أقبل نهض يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمنّ عداوة موسومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة فى الرياسة التى كانت بين هذين الرجلين الفذين

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد ، بل انضم إلى القاضى ابن أبى دؤاد ، فأبعده هذا إلى حدّ ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرها ابن الزيات ؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين ، حتى رأينا الجاحظ يميل إلى ابن الزيات ويكون من حزبه . ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات ، فكتب الجاحظ الكتاب ، وناوله الرجل ، فسار به إلى أبى العيناء ، وقال له : قد أسعف بالمراد ، قال : فهل قرأته ؟ قال : لا . إنه مختوم . قال : ويحك فضّه لا يكون صحيفة المتلمّس ؛ ففضّه فاذا فيه : موصل كتابى هذا سألنى فيه أبو العيناء ، وقد عرفتَ سفهه وبذوء لسانه ، وما أراه لمعروفك أهلا ، فان أحسنتَ اليه فلا تحسبه على بدا ، وإن لم تحسن اليه لم أعده عليك ذنباً والسلام . فركب أبو العيناء إلى الجاحظ ، وقال له : قد قرأت كتابك يا أبا عثمان ، فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء هذه علامتى فيمن أعتنى به ، قال : فاذا بلغك أن صاحبى قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه

وصلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبى العيناء ، وكان هذا أثراً لتشيع الحاشية وانقسامها على نفسها كما سبق ؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضى ابن أبى دؤاد فى تلك المدة ، ويتودد اليه ، ويروى عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً ؛ قال أبو العيناء للقاضى : إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سرّ مَن رأى) بداً على ، قال : يد الله فوق أيديهم ، فقلت : إن لهم مكراً ، فقال : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقلت : إنهم كثير ، فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، فقلت : لله در القاضى ، فهو كما قالت الصموت الكلابية :

لله درك أى جُنة خائف ... ومتاع دنيـا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال شهامة ... وطء الفنيق مدارج القِرْدان
ويكبهم حتى تظـل رءوسهم ... مشـجوجة تنحطّ للغربان
ويفرّج الباب الشديد رتاجُه ... حتى يصـير كأنه بابان

وقال أبو العيناء : كنا عند القاضى ابن أبى دؤاد فى جماعة من أهل العلم والأدب ، فوفد عليه رسول الحاجب أبى منصور يقرئه السلام ويسأله ألا يقصد القاضى إلى الحاجب ، لأن ذلك يضر بسمعته عند الوزير ابن الزيات ، فقال القاضى : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ، ونظر بعضنا إلى بعض ، فقال : أما عندكم جواب ؟ قلنا : القاضى أعزه الله أعلم بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرأ عليه السلام ، وقل له ما أتيتك متكثرا بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً اليك كربة ؛ ولـكنك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فان جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه

على أنه لا يغرنا مجالسة أبى العيناء للقاضى ، فانه قد وقعت بين الرجلين خصومة ، فـكان لا يرحمه فيها أبو العيناء ، مما يدلنا على أنه كان من الرجال النفعيين الذين يؤثرون المنفعة الشخصية على تلك الصداقة التى لا تفيده شيئاً من المـال الذى يحبه ويفضله على كل عزيز وحميم . ولـكن ينبغى ألا نفهم من هذا أن أبا العيناء انضم إلى حزب ابن الزيات . كلا . بل أبغض الرجلين جميعاً ، وذمهما معاً ، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الآداب وقد آثرت أن آتى بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه فى الـكتابة

قال أبو العيناء : لما حبس الواثق ابراهيم بن رباح ، وكان له صديقا ، صنعت له هذا الخبر راجياً أن ينتهى إلى أمير المؤمنين فينتفع به ؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه ، وقال ما صنع هذا كله إلا أبو العيناء بسبب ابراهيم بن رباح ، وأمر بتخليته . والخبر هو : قال لقيت أعرابياً من بنى كلاب ، فقلت له ماعندك من خبر هذا العسكر ؟ قال قتل أرضا عالمها ؛ قلت فما عندك من خبر الخليفة ؟ قال مخبخ فى عزه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرعف قلم كل كاتب بجنايته ؛ قلت فما عندك فى أحمد بن أبى دؤاد ؟ قال : عضلة من العضل لا تطاق ، وجندلة لا ترام ، ينتحى بالمدى لتنحره فيجوز ؛ وتنصب له الحبائل ، حتى تقول الآن ، ثم يطفر طفرة الذئب ، ويخرج خروج الضب ؛ والخليفة يحنو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه . قلت فما عندك من خبر ابن الزيات ؟ قال ذلك وسـع الورى شره ، وبطن بالأمور خبره ، فله فى كل يوم صريع ، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مخلب ، إلا بتسديد الرأى . قلت فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح ؟ قال ذاك رجل أوبقه كرمه ، وإن بقره للـكرام قدح ، فلا عزّ بهجائه ؛ ومعه دعاء لا يخـذله ، ورب لا يسلمه ، وخليفة لا يظلمه . ثم يأخذ فى الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وهذا لا يعنينا فى شىء لأننا لا ندرس أولئك الرجال الآن ، ثم يقول قلت له : أين نزلت فأؤمك ؟ قال مالى منزل تؤمه ، أنا أستتر فى الليل إذا عسعس ، وأنتشر فى الصبح إذا تنفس

ويلوح لى أن تلك الأحاديث هى التى فتحت باب المقامات ، وأوجـدت الفكرة الرئيسية فيها ، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمذانى والحريرى فيما بعد

قد عادى أبو العيناء ابن أبى دؤاد ، ولـكنه لم يمض فى الخصومة إلى حـد كبير ، بل حفظ له جميـل كرمه وقضاء حوائجه التى كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على وده وصداقته ما دامت تجر عليه المنفعة حينا . قال له المتوكل يوماً : من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبى دؤاد ، فقال المتوكل تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء . قال إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس فى موضع من المواضع أنفق منه فى مجلسك ، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشـيد ، وسخاء الفضل والحسن ابنى سهل منسوب إلى المأمون ؛ فاذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابنى يحيى بن خاقان إلى السخاء ، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين . قال صدقت

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة وأنها كانت طفيفة ، ويظهر أن سببها كان عدم إجابة طلب لأبى العيناء أو قبوله شفاعة ، أو نحو ذلك من الأشياء التى كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبى دؤاد مدة خلافة المعتصم والواثق حتى تولى المتوكل ، وفى السنة الثانية من خلافته نـكب ابن الزيات وأحرقه فى التنور [1] ، وخلا الجو

(١) ويقول أستاذنا الاسكندرى إنه أدخله فى تنور مملوء بالمسامير وعذبه فيه حتى مات صبراً وهذه الطريقة هى التى كان يقتل بها الناس

بهذا لحزب ابن أبي دواد ، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً ، فاتصل بالمتوكل وحصلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض ؛ ويظهر أن أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كي يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات ، ولكنه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا . قال له المتوكل : بلغني أنك رافضي ، فقال يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ، ومنشئي في مسجد جامعها ، وأستاذي الأصمعي ، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا ، فان كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أخروا ، وتأخير من قدموا وإن كانوا أرادوا الدنيا ، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين إلا بك ، ولا دنيا إلا معك . وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضي عليه ، لأن المتوكل كان يكره الرافضة الذين يدينون بحب علي بن أبي طالب (ض) ولكنه تخلص بذكائه

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري فقال له الخليفة ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك . فاستحسن كلامه وقال : كيف شرابك للخمر ؟ قال أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره ؛ فقال له الخليفة دع عنك هذا ونادمنا ، فقال لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بحالي في هذا المجلس من الشرف ، ولكني رجل مكفوف البصر ، وكل من في مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إلى بعين راض ، وقلبك على غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ، فأختار العافية على التعرض للبلاء . قال صدقت ، ولكن تلزمنا ، قال لزوم الفرض الواجب اللازم . فوصلني بعشرة آلاف درهم

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكل يتمنى أن ينادمه ، ويود ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فكه المحاضرة ، عذب الحديث كأبي العيناء في مجلس شرابه ، وقد كان المتوكل يمزح معه كثيراً قال له مرة : هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط . قال يا أمير المؤمنين أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا ! قال لم تكن ضريراً فيما تقدم ، وإنما سألتك عما سلف ؛ قال نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه . قال المتوكل : تجده كان مؤاجرا ، وتجدك كنت قوادا عليه ، فقال أبو العيناء : أو فرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أترانى أدع موالي على كثرتهم ، وأقود على الغرباء ، قال اسكت يا مأبون ! قال مولى القوم منهم ، قال المتوكل أردت أن أشتق منهم ، فاشتق لهم مني

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكل قد عصمه الى أحد ما من القصف والمجون الذين كان يجرى في قصر الخلافة ، وإن كنت أعتقد أن شخصاً متوقد الذكاء كأبي العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور ، خوفاً من أن تضيع عقله ، وتغلب على لبه ، فيخرج عن صوابه ، وهو ما كان يأباه على نفسه ، فجوابه إذاً للمتوكل حين سأله عن الشراب بقوله : أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلص من منادمته ، وإنما كان صادقاً في هذا القول ، وإن كان قد ذهب الى الاستمتاع بملذات الحياة من غير طريق الشراب ، كما حان له ذلك ، ولكن ذهابي الى هذا الرأي ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله في عصمة الأنبياء والصديقين بل ربما يكون قد شرب ونادم وأفرط في الشراب والقصف وأخذ بحظه من اللهو والمجون مع غير المتوكل ، لكنني لا أميل الى اتهامه بأنه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الكؤوس ، كالمتوكل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلاً ، كلا . وإنما كان لا يميل الى تعاطي الكثير من الخمور لأنها تجره الى الافتضاح كما يقول

(يتبع) الزقازيق محمود محمود فليل

قسم البلديات
قلم التنظيم

تقبل العطاءات بقسم البلديات حتى ظهر يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥ عن إقامة كشك للموسيقى من الأسمنت المسلح بمغاغه

وتطلب الشروط والمواصفات من قسم البلديات مقابل ٥٠٠ مليم ، وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالجمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ٢ ٪ من قيمتها . وكل عطاء يرسل بطريق البريد ويصل متأخراً لا يلتفت إليه